نوستالجيا الخلافة العثمانية
(تشريح خطاب الهوية عند الرئيس التركي رجب طيب أردوغان)

Nostalgia of the Ottoman Caliphate

Analyzing identity discourse of Turkish president Recep Tayyip Erdogan

أ. م. د. سربست نبي
جامعة كويه– كردستان العراق
Sarbast.nabi@koyauniversity.org

الملخص

تعدّ مسألة الهوية منذ ولادة الدولة التركية الحديثة أحد أهم التحدّيات التي واجهت السياسة الداخلية التركية وفرضت بظلالها على سياستها الخارجية والإقليمية. وفي نهاية المطاف لا تزال تشكّل كابوساً مؤرقاً للعقل السياسي التركي. ورث مؤسس الدولة مصطفى كمال أتاتورك بقايا إمبراطورية واسعة، مثقلة بالمشكلات، وورث معها تعددية قومية ودينية تحدد معالم الخارطة الثقافية والاجتماعية لتركيا، تقسمها عمودياً وأفقياً. ولأجل خلق هوّية تركيا مركزية تستقطب حولها المكونات التركية، فرض عليها مواطنة قوامها أيديولوجيا علمانية تكرّس تفوق العنصر التركي وهيمنته، وبالنتيجة تنكرت الدولة الأتاتوركية لكل تعددية قومية أو ثقافية أو دينية قائمة تاريخياً في تركيا. كانت الأتاتوركية بمثابة لاصق أيديولوجية سريع العطب، لم يحقق لتركيا التماسك الهوياتي الداخلي طويل الأمد.

ناهيكم بتحدّي المسألتين القوميتين، الكردية والأرمنية، اللتان تفاقمتا منذ بدايات القرن العشرين، فقد عصف تناقض الإرث الثقافي الإسلامي للأتراك مع هوية الدولة العلمانية الفوقية بالحياة السياسية التركية منذ أواسط القرن العشرين. هذا الإرث عاد وتجلّى على شكّل حنين نوستلجي متجذر في الوعي المجتمع التركي مع نهايات القرن، واكتسب أبعاد سياسية حركية، واحتل خطابه فضاءاً واسعاً من الثقافة والسياسة التركية. وأخير برز كرؤية ومقاربة خلاصية للوضع الجيوسياسي التركي الذي فرض على تركيا مع نهايات الحرب الكونية الأولى.

اعتقد الرئيس التركي، ومنظّر المجال أو العمق الاستراتيجي أحمد داؤود أوغلو، أن العثمانية الجديدة هي هذا البديل السياسي والأيديولوجي لخلق هويّة تتجاوز تناقضات الدولة العلمانية وفشلها في خلق انسجام أو تماسك داخلي، كما تشكّل منصة عملية لتوسيع وتعميق النفوذ الجيوساسي التركي واستعادة المجد الإمبراطوري المبدد.

كلمات مفتاحية: الهوية، الخطاب، الأيديولوجية، الإسلام السياسي، العثمانية الجديدة، الأردوغانية..

Nostalgia of the Ottoman Caliphate

Analyzing identity discourse of Turkish president Recep Tayyip Erdogan

Assis. Prof. Dr. Sarbast Nabi
Koya University, Iraqi Kurdistan
sarbast.nabi@koyauniversity.org

تتعدد المظاهر والأدوار التمثيلية التي يرغب الرئيس التركي في تقديمها للجمهور وتتنوع بحسب المناسبة والحاجات الطارئة. إنه يريد أن يقدّم نفسه للجمهور بأنه الأمثل والأفضل في تمثيل هواجسه وتطلعاته ورغباته. فهو يظهر أحياناً بمظهر المؤمن الزاهد التقي، وينشر الفيديوهات عن نفسه وهو يتلو القرآن بتهدج وخشوع والدموع تذرف من عينيه. وفي أحوال أخرى يحمل المصحف بيده ويلوّح به للجمهور، موحياً بقوة إيمانه والتزامه، ثم يستعين بالمفاهيم القرآنية والمصطلحات الإسلامية في تبرير غزواته وحروبه، سواء في الداخل ضد معارضيه أم في الخارج، ويطلق التسميات والألفاظ المقدسة على جنوده ومعاركه، وكأن إلهاماً إلهياً أوحى إليه للقيام بذلك كما يزعم. هذه البراغماتية تطبع مواقف أردوغان السياسية على الدوام وتعكس بعمق غياب كلّ التزام مبدئي لديه. ففي الوقت الذي يقدّم نفسه كعلماني ينتمي إلى الفضاء السياسي للغرب الرأسمالي وكعضو فاعل في الناتو، هو يعدّ نفسه زعيماً لا ينافس للأمة الإسلامية وللجماعات الأصولية وقائداً ثيوقراطياً مرجعاً لجماعات الإخوان المسلمين. وهو لا ينسى في كل الأوقات رفع(شارة رابعة) بيده أمام الجمهور في كل مكان لاستقطاب تعاطفه، في حين يرفع باليد الأخرى رمز(الذئاب

الرمادية)[**] أمام حشود القوميين المتعصبين الأتراك، لإثبات ولائه وانتمائه لهم. فقد أدرك أردوغان بحسه الشعبوي أهمية استثمار العلاقة العميقة بين الشعور الديني الشعبوي السائد لدى قطاع واسع من الأتراك والشعور القومي، وشرع يوظفهما معاً لإنتاج وعي جديد بالهوية متجذر في الوجدان الجمعي التركي.

ولتحسين صورته أمام الغرب والرأي العام العالمي، لا يتردد الرئيس التركي في تقديم نفسه بصفته المدافع الأول عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والحرّيات في العالم كله. يتباكى على مهاجري الروهينغا، في الوقت الذي يقتلع فيه مئات الآلاف من الكورد من بيوتهم وقراهم. يعلن سخطه على اضطهاد الأويغور في الصين وهو يقمع ملايين الكورد ويتنكر لحقوق القوميات غير التركية ضمن حدود دولته. يتاجر بمحنة الفلسطينيين ويزايد في موقفه على جميع العرب علانية، لكنه في الواقع يعدّ الرئيس التركي الأكثر حرصاً على تعزيز العلاقات والتعاون الاستراتيجي بين تركيا وإسرائيل. يملأ المشهد بالصراخ والزعيق حول مصير صحفي مقتول ويشهّر دمه في وجه الجميع مثل(قميص عثمان) ويدعو للانتقام له في حين أن تركيا باتت في عهده أكبر معتقل للصحفيين في العالم.

كما يحلو للرئيس التركي أن يقدّم نفسه للجمهور التركي على أنه الضحية الرئيسة لمؤامرة إرهابية كونية تدار في الخفاء ضده لعرقلة طموحه في إنقاذ الدولة والأمتين التركية والإسلامية. فهو يحاول على الدوام أن يقدّم نفسه كمخلص للأمتين الإسلامية والتركية معاً، اللتين تتكالب عليهما الأمم والدول الأخرى. وعادة ما يلجأ إلى تبرير إخفاقاته السياسية وفشله بوجود تلك المؤامرة، التي تستهدف إخضاعه أو التخلص منه. وبذلك يلقى بمسؤولية فشل خططه على فكرة تآمر الإرهابيين ضده. من هنا يحلو له أن يعلن للعالم إنه المحارب الأوّل الأشدّ صلابة للإرهاب، مع العلم أن جميع الجهاديين في الشرق الأوسط والعالم، يبدون مثقلين بالامتنان والوفاء له على دعمه، بخاصة في سوريا والعراق. هكذا هو أردوغان، إنه بحسب الأحوال والأوقات، يقوم بتمثيل الدور ونقيضه، وفي كلّ هذا وذاك هو ليس سوى نفسه..

الأردوغانية ليست خطاباً نظرياً أو رؤية فكرية، مستقلة ومتماسكة، في السياسة، ولا تشكّل إضافة معرفية هامة في عالم الفكر السياسي والفلسفة. لكنها في الوقت نفسه تعبر عن ممارسات خطابية أو جملة ممارسات ومواقف أيديولوجية وعملية متميزة، تعكس رؤية سياسية وتجسّد نمطاً خاصاً من

[**] هي إيماءة باليد على شكل رأس ذئب، تعبر عن تنظيم مسلح موصوف بالإرهاب يتبع حزب الحركة القومية التركية، وهذا الأخير يتبنى أيديولوجية قومية يمينية ويرفض أية تسوية مع الكرد والأرمن، ويتبني مشروع قومي طوراني يؤكد على تفوق العرق التركي على الأمم الأخرى

السلوك السياسي يستلهم خصائصه من الإرث المشترك والتقاليد العامة بين الطغاة والمستبدين القوميين، لكنه يتخذ هنا طابعاً سياسياً وثقافياً ورمزياً خاصاً بتاريخ الدولة والمجتمع التركيين.

استطاع أردوغان خلال العقدين الأخيرين من حكمه للدولة التركية، أن يفرض هذا النموذج السياسي والأيديولوجي الخاص ويطبع به السياسة التركية، من خلال الانفصال التدريجي عن النموذج الأتاتوركي/ العلماني Ataturkism، الذي كان سائداً ومهيمناً على الحياة السياسية. وقد ارتبط هذا التحوّل الذي طرأ على السياسة الخارجية التركية، بصعود حزب العدالة والتنمية، وعدّ قطيعة مع الاستراتيجيات الكمالية التي كانت تنشد الانضمام إلى الفضاء الثقافي والأيديولوجي الأوروبي.

تؤرّخ بدايات هذا التحول نحو(العثمنة الجديدة) عادة بالسياسات الخارجية التركية التي اعتمدتها حكومة تورگوت أوزال Turgut Özal وهدفت إلى إعادة الاعتبار والدور للنفوذ التركي في البلقان والشرق الأوسط وشمال إفريقيا. إلا أن المبشّر والمنظّر الحقيقي للدبلوماسية العثمانية كان أحمد داؤود أوغلو Ahmet Davutoğlu الذي تولى وزارة الخارجية عام ٢٠٠٨ وكرّس القطيعة مع التقاليد الكمالية للسياسة الخارجية التركية، ذات التوجه الحاسم نحو الغرب الأوروبي منذ حوالي ثمانين عام.

في مقابل هذه القطيعة أو الانفصال عن التقاليد الكمالية أعلن أردوغان صراحة ومراراً، إن تركيا المعاصرة هي وريثة الإمبراطورية العثمانية، ومن ثم من واجبها استعادة هويتها العثمانية المفقودة تلك وإعادة إنتاجها سياسياً وأيديولوجياً، وبالتالي استرداد كل التراث المهدور والمستلب للعثمانية على المستوى السياسي والثقافي وحتى على مستوى النفوذ الإقليمي. إلا أن اندفاع أردوغان نحو العثمنة الجديدة لم تقتصر على السياسة الخارجية فحسب، إنما بالقدر نفسه نحو إحداث تحولات بنيوية مجتمعية وسياسية جذرية ترتبط بهويّة الدولة التركية ونظامها السياسي، فضلاً عن تطلعاته التوسعية نحو الهيمنة واستعادة التركة والنفوذ الجيوسياسي المفقود للإمبراطورية العثمانية.

لقد نشأت الأتاتوركية من رحم الدولة العثمانية، التي كانت آخذة بالتفسخ والموت، وعادت وانتهت بالتفسخ في العثمانية الجديدة، وتعدّ الأردوغانية إيذاناً ببرهة التفسّخ الأخيرة وتمثلها بكل تركتها الثقيلة والكريهة. الأردوغانية هي نتاج أسوأ ما في الحقبتين التاريخيتين، الإمبراطورية العثمانية والجمهورية القومية الأتاتوركية، من تقاليد سياسية وإرث. إنها ثمرة تلاقي وتلاقح النزوع الإمبراطوري الدفين في الذاكرة القومية لاستعادة الأمجاد الإمبراطورية التوسعية، القائمة على طغيان أغلبية دينية ومذهبية من جانب أول، ومن جانب آخر النزعة الطورانية الأتاتوركية، التي تنادي بالتفوق العرقي وهيمنة العنصر التركي على بقية الشعوب المحيطة، إنها وريثة المظهرين. من هنا ازدهرت السردية الأيديولوجية للعثمانية الجديدة وتجسدت عملياً في الظاهرة الأردوغانية، التي هي واقع

السلطة العثمانية وقد تشخصنت في مستبد. إن بنية الأيديولوجيا العثمانية الجديدة تتكون من جملة ممارسات ومواقف سياسية منحرفة مع خلطة تصورات وآراء فكرية متطرفة تجمع بين الطموحات القومية العنصرية التركية والإسلام السياسي المتشدد في إهاب عثماني توسعي يتطلع إلى الهيمنة على بقية الشعوب وجعلها تحت الزعامة القومية للعنصر التركي.

– العثمانية الجديدة: أرض الميعاد وعودة الأفندية.

استخدم مصطلح(العثمانية الجديدة) Neo–Ottomanism وصار متداولاً للمرة الأولى على يد اليونانيين بعد الغزو التركي لجزيرة قبرص عام. ١٩٧٠م، وقد أشيع في العقود الثلاثة الأخيرة على نطاق واسع، في ظلّ هيمنة حزب العدالة والتنمية بزعامة أردوغان، للدلالة على الطموح السياسي التركي لبعث الأمجاد العثمانية وفق منظور أيديولوجي جديد، واستعادة النفوذ الجيوسياسي المفقود بعد مضي قرن على معاهدة لوزان Treaty of Lausanne(١٩٢٣م). وعلينا أن نضع في الاعتبار أن النموذج الأيديولوجي أو(الموديل) الراهن للعثمانية الجديدة هو نتاج تبدل الظروف التاريخية والشروط السياسية على مستوى النظام الدولي، التي أحاطت بنشوء الجمهورية التركية وحددت مكانتها الجيوسياسية في النصف الأول من القرن العشرين، وبهذا تعدّ الدعوة الراهنة بمثابة نزوع نوستلجي، سياسي وأيديولوجي، لتخطي الأسس والشروط الجيوسياسية لنشأة الدولة التركية. يصف الكاتب الصربي داركو تاناسكوفيتش Darko Tanaskovic العثمانية الجديدة(بأنها الأرضية الأيديولوجية الشاملة، التي تتحرك استناداً عليها تركيا الحالية، باعتبارها وريثة حضارية للإمبراطورية العثمانية. وهي تروّج للإرث الروحي والثقافي والسياسي العثماني كي تضمن لنفسها مكانة دولية مؤثرة وسط العالم المتغير. ويربط الكاتب في هذا السياق بين العثمانية الجديدة وإعادة أسلمة المجتمع التركي) (الجميل، ٢٠١٥، ص٤٩)

يُعزى إلى نجم الدين أربكان Necmettin Erbakan وضع أول خارطة طريق للعثمانية الجديدة باسم (Milli Görüş) أي(الفكر القومي) في عام ١٩٦٩، ليتأسس بعد ذلك أول حزب تركي بصيغة إسلامية رسمية منذ سقوط الدولة العثمانية عام ١٩٢٤م . وتعدّ هذه الخطوة بنظر العديد من المؤرخين بداية تيار الإسلام السياسي والإخواني في تركيا ذي التوجّه العثماني الجديد، الذي جعل من مهمة استعادة الإرث العثماني مهمة قومية مقدسة بالنسبة إليه. وبعد أقل من ثلاثة عقود استطاع هذا الحزب(حزب الرفاه الإسلامي) برئاسة نجم الدين أربكان أن يتولى الحكم (١٩٩٦م) في تركيا وكان(أول حزب دعا إلى انضمام تركيا، كدولة قائدة، إلى مجموعة إسلامية جديدة تضم بلدان العالم الإسلامي، في إطار منظمة للتعاون الدفاعي وأخرى للتعاون الثقافي، وسوق إسلامية واحدة، وعملة واحدة ليتم تداولها في العالم الإسلامي. ورفض هذا الحزب انضمام تركيا إلى

المجموعة الأوروبية، لأن من شأن ذلك أن يمثل تهديداً لمصالح تركيا الحقيقية على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي) (مجموعة باحثين، ٢٠١١، ص٧١)

لم تكتسب دعوة أربكان، التي كانت تستلهم مسوغاتها من المشاعر القومية والدينية الحالمة، السائدة في الشارع التركي، زخمها السياسي، ولم تتحول إلى أجندة سياسية عملية بسبب افتقارها إلى المبررات الجيوسياسية الواقعية في وقته. وبالتالي كان عليه أن ينتظر عقدين من الزمن وأكثر ليشهد تحولات تاريخية وجيوسياسية على صعيد النظام العالمي لتتشكل منصة واقعية لتلك الدعوة وتمنحها أفقاً وتتحول إلى خطاب سياسي وسردية أيديولوجية.

لقد آمن تورگوت أوزال بضرورة إحياء" العثمانية الجديدة" كرافعة تاريخية تحتل تركيا بوساطتها مكانة مركزية، بدلا من أن تكون مجرد عضو" طرفي" أو هامشي لحلف" شمال الأطلسي" NATO كما كانت، وترتدي دوراً محورياً في قلب الصراعات والتطورات الجارية، وتستعيد بذلك نفوذها ومكانتها العظيمة في محيطها الإقليمي. فضلاً عن ذلك بمقدور تركيا أن تتخطى بوساطة هذه(المحالة) الأيديولوجية مشكلاتها الداخلية والخارجية معاً. كان أوزال على قناعة بأن تركيا باتت الآن قادرة من هذا المنطلق أن توحد العنصر التركي في جهوريات آسيا الوسطى على أساس فكرة" الجامعة الطورانية"، كما بمقدورها أن تبادر إلى احتواء النزاعات في البلقان وفي " كردستان العراق"، وبطبيعة الحال تواجه التحدّي المزمن للقضية الكردية داخل تركيا. وتجد الحلول للمعضلات الجيوسياسية في محيطها القريب مع اليونان وبلغاريا، وسوريا، والقبرص، وأرمينيا... الخ

هكذا تبلورت الدعوة إلى" العثمانية الجديدة" لدى تورگوت أوزال نتيجة صدمة التحولات الجيوسياسية التي حدثت في العالم في أعقاب انتهاء حقبة الحرب الباردة. أيضاً عززت هذه الدعوة عمق الخيبة التي شعرت بها النخبة السياسية التركية اتجاه أوروبا، رغم حجم التنازلات والضمانات المتعلقة بهويتها الإسلامية ونظام السياسي، التي قدمتها، وعلى حساب موروثها الثقافي، بهدف الالتحاق بالفضاء الجيوسياسي الأوروبي. ومع ذلك كان الانتظار الطويل من نصيبها في نهاية الأمر ومخيباً، وكانت نوستلجيا العودة إلى أمجاد الماضي العثماني بمثابة تعويض عن هذا الشعور بالفشل في الانضمام إلى الجماعة الأوروبية.

كتب **صامويل هنتنجتون** في التسعينات من القرن الفائت مستنتجاً، إن أحد أهم نتائج نهاية الحرب الباردة كانت إعادة تعريف صلة تركيا بالعالم الأوروبي، حيث لم تعدّ تركيا مفيدة للغرب كحصن رئيس ضد الخطر الرئيس، السوفيتي، من الشمال، وكان لابد من إعادة تعريف السؤال عن الهوية الحضارية التركية بعد إصلاحات كمال أتاتورك، وتأكيد دورها كحامية للمسلمين الأتراك في آسيا الوسطى والبلقان.. الخ وقدّر هنتنجتون بأن تركيا لديها التاريخ وعدد السكان والمستوى المتوسط من

النمو الاقتصادي والتقاليد العسكرية والكفاءة... لكي تكون دولة مركز.. ولكن أتاتورك حرّم الجمهورية التركية، بحسب رأيه، من أن تخلّف الإمبراطورية في هذا الدور، وذلك بسبب تحديد هويتها بكل وضوح كمجتمع علماني. إنها لم تتمكّن حتى أن تكون عضو ميثاق في منظمة المؤتمر الإسلامي بسبب التزامها بالعلمانية في دستورها، وطالما أن تركيا سوف تستمر في تعريف نفسها كدولة علمانية، فلن تكون لها زعامة الإسلام.

وتساءل: ماذا لو أعادت تركيا تعريف نفسها؟ عند نقطة ما، يمكن أن تكون تركيا مستعدة للتخلي عن دورها المحبط والمهين كمتسوّل يستجدي عضوية نادي الغرب، واستئناف دورها التاريخي الأكثر تأثيراً ورقياً كمحاور بإسم الإسلام، وكخصم للغرب.)(هنتنجتون، ١٩٩٩، ص٢٩١)

كان تورگوت أوزال سياسياً عملياً من طراز رفيع إلا أنه لم يكن منظّراً من مستوى داؤود أوغلو. وبالرغم من أن الدعوة إلى" العثمانية الجديدة" تنسب إليه أولاً وتؤرخ به، إلا أنها لم ترقَ إلى مستوى الرؤية النظرية المتكاملة والعقيدة السياسية إلا على يد أحمد داؤود أوغلو ، الذي يعدّ المنظر الحقيقي لهذه الدعوة، كما نظّر لها بصورة منهجية وكتب مئات الصفحات حولها في كتابه المعروف" العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية" ورأى داؤود أوغلو إن(التطورات بعد الحرب العالمية الأولى قادت إلى تخلي الجمهورية عن كل المسؤوليات والطموحات الدولية، وعوضاً عن ذلك اتجهت أولاً، نحو الانكفاء وتبني استراتيجية الدفاع عن الحدود القومية والدولة الوطنية بدلاً من الاستراتيجية ذات البعد الدولي. ثانياً، فرضت على نفسها أن تكون جزءاً من محور الغرب المتصاعد وليست بديلة أو معارضة له... واتجه النظام الجمهوري الجديد، الذي رفض الأهداف السياسية للدولة العثمانية ومؤسساتها، في انسجام مع الإعلان المذكور، إلى تشكيل ثقافة سياسية جديدة تتواءم مع الوضع الدولي. وبدأت النخبة السياسية، تعتقد بأن الوحدة السياسية الداخلية والحفاظ على الحدود، تتم عن طريق إصلاحات واسعة، في تصفية الهوية السياسية العثمانية ومؤسساتها، التي تزعج المحور الغربي المسيطر. وهكذا، اتخذت تركيا قراراً جدياً وراديكالياً بسبب الوضع الدولي، وفضلت أن تكون قوة إقليمية تدخل تحت المظلة الأمنية للحضارة الغربية. وقد أثر هذا الوضع على التطلعات السياسية للمجتمع وموقفه وثقافته ومؤسساته في العمق) (داؤود، ٢٠١١، ص. ص ٩١/٩٢)

من هنا يتعين أن تتخطى تركيا هذا الوضع وتستعيد مكانتها الدولية وثقلها في القرن الحادي والعشرين كي تغدو قادرة على لعب دورها المؤثر في السياسة العالمية. ويضيف داؤود أوغلو بعداً آخر لرؤيته هذه تقوم على مبدأ" صفر المشاكل مع الجيران" وهو ما منحها زخماً أقوى(فلكي تصبح تركيا قوة عظمى من الضروري أن تكون لها علاقات جيدة مع جميع جيرانها. وهذا يعني

وجود علاقات جيدة ليست فقط مع جيران الأغلبية المسلمة مثل إيران وسوريا، لكن أيضاً مع جيران الأغلبية المسيحية، مثل بلغاريا، فضلاً عن أرمينيا واليونان...) (Cagapty, 2020, P.46)

والحال أن مبدأ(صفر المشاكل) الذي روّج له داؤود أوغلو كأحد الدعامات الرئيسة لدبلوماسية(العثمانية الجديدة)، تحول على يد أردوغان خلال حقبة حكمه الثانية بين أعوام ٢٠١١م والانقلاب الفاشل ٢٠١٦م إلى مبادرة(القوة العثمانية الجديدة) واتخذ شكل التدخل العسكري العنيف في الدول المحيطة، وفي تلك التي شهدت حراكاً سياسياً احتجاجياً مثل سوريا وليبيا، وبالنتيجة تداعى هذا المبدأ تحت ثقل طموحات أردوغان التوسعية وتدخلاته.

هنا أخذت عقيدة(العثمانية الجديدة) تتحول، شيئاً فشيئاً، إلى عقيدة توسعية بمخالب عسكرية، مع طموح أردوغان وسعيه إلى خلق بنية اقتصادية رأسمالية قوية، وقوّة وصناعة عسكريتين ومتقدمتين، تؤسس لشبه إمبريالية قومية تركية في محيطها الإسلامي، تتجاوز بها القيود الجيوسياسية والاقتصادية، التي فرضت عليها بعد الحرب العالمية وانهيار الإمبراطورية العثمانية. ولهذا الغرض اتجه إلى إعادة هيكلة الدولة التركية وظيفياً عبر تعديل الدستور وتغيير نظام الحكم فيه، وسيطر خلال ذلك على مؤسسات الدولة العسكرية والإعلامية. كما عمد إلى تشكيل هوية المجتمع التركي عبر الهيمنة على الحياة العامة وتبني مظاهر وتجليات من الإرث العثماني، وأحاط نفسه بإهاب عثماني مستعيراً في خطاباته لغة ومنطق متخمين بنوستلجيا الخلافة العثمانية.

بموازاة ذلك عمد أردوغان من خلال احتكار المؤسسات الثقافية والإعلامية إلى الهيمنة على الحياة المدنية العامة بغرض إحداث تغيير جذري في وعي المجتمع التركي وتهيئته لتقبل أفكاره وطموحاته الأيديولوجية. فأطلق الحرية للجماعات الدينية والفرق السلفية في بسط سيطرتها ونفوذها على المجال العام والحياة الاجتماعية والثقافية، ومنحها الحرية في نشر أفكارها وترسيخ نشاطاتها الدعوية. كل ذلك بهدف إعداد الشارع التركي للهيمنة عليه فكرياً وسياسياً وتوجيهه تالياً. وصرح أردوغان بوضوح إنه من بين أهداف سياسته الداخلية صنع جيل من الأتراك المؤمنين الأتقياء. واستخدم لهذا الغرض المدارس الدينية، التي شجع على انتشارها في البلاد وتوسع في بنائها وتأسيس الجديد منها بالمئات، وهي مدارس(الإمام الخطيب) التي تفرض مقررات دراسية ومناهج غيبية ودينية. وبالمثل أعاد النظر في مناهج المدارس العمومية العلمية، وقررت الحكومة التوقف عن تدريس(نظرية داروين) في النشوء والتطور في المناهج التعليمية. واستمراً لهذا النهج المحافظ أكد أردوغان في كلمة له في ديسمبر/كانون الأول 2014 ضرورة استعادة تعلم اللغة العثمانية وإحيائها في المدارس التركية، وقال: آن الأوان للعودة إلى جذورنا، هناك من يشعر بالانزعاج من

عودة اللغة العثمانية، وهي في الأصل تركيتنا القديمة، وليست لغة أجنبية، لكن إن شاءوا أم أبوا ستعود".

إذا كان أحمد داؤود أوغلو يمثل الوجه النظري الحالم للعثمانية الجديدة، فأن الأردوغانية، ممثلة بشخص الرئيس التركي، تمثل الوجه العملي/ التوسعي والسلطوي لها، بما تحمله من خصائص السلطة المتعسفة، التي لا هدف لها سوى الحفاظ على ذاتها وديمومة بقائها، ولهذا الغرض تدوس المحرمات وتكتسح القيم والفضائل متى ما شكلت تهديداً لبقائها. فالسلطة الأردوغانية لا مأرب لها سوى ازدهارها وعظمتها ورسوخها. ولا تعترف بأي مبدأ أسمى أو قانون سوى حفظ ذاتها وبقائها، فتجيز لنفسها انتهاك أيّ قانون أخلاقي وتبرر جميع الوسائل لتحقيق هذا الهدف بدواعي المصلحة العليا والأمن القومي. الأردوغانية هي المظهر السياسي السلطوي، المخادع والمخاتل للعثمانية الجديدة، إذ لا يمكن فصل السياسة الخارجية لتركيا عن التحول نحو النظام الاستبدادي في تركيا أو شخصية الرجل الذي يمارس سلطة الاستبداد هذه لدى البحث في التحولات السياسية في تركيا. فقد قصد أردوغان تحويل الإسلام السياسي ومشروع العثمانية الجديدة إلى تجربة شخصية يحاول من خلالها أن يقدّم نفسه كتجسيد مشخص لهما.

هكذا بات التبشير بـ(العثمانية الجديدة) المهمة الأيديولوجية الرسمية لحزب العدالة والتنمية ومنهاجاً سياسياً طبعت به السياسية الرسمية للدولة التركية، وهيمن من خلاله على مناح الحياة الأخرى على مستوى الدولة والمجتمع المدني في تركيا.

على الدوام يشير الرئيس التركي ويستشهد بخارطة(الميثاق المللي) كمرجع تاريخي(موثوق) سياسي وقانوني لإعادة بعث تركيا الجديدة، التي ستنهض بعد انتهاء قرن على معاهدة لوزان وتدفن في التابوت المقدس(للميثاق المللي)، الذي بدوره يعدّ بمثابة الحاوي للوصاية المقدسة، للشعب المختار، إنه يحوي على وعدٍ باستعادة أرض الميعاد. وبحسب رأي أردوغان وحاشية حزبه، فأن المناطق السورية والعراقية كـ(حلب، الموصل، وكركوك) والعديد من المقاطعات اليونانية والبلغارية، هي أراض سليبة ومستقطعة من تركيا بموجب(الصكّ المدنس) للوزان، لها الحق في تقرير مصيرها والانضمام لتركيا(الوطن الأم) بعد انقضاء القرن. ويتحدث الساسة الأتراك باستمرار عن الحقوق التاريخية لتركيا في الموصل وكركوك وحلب. لكن هذا الحديث ازداد صخباً وحدّة في زمن حزب العدالة والتنمية، الذي طالما أثاره كذريعة لتبرير تدخله السياسي والأمني في شؤون الجوار. وسبق لعضو البرلمان التركي عن حزب العدالة والتنمية الحاكم في أنقرة" متين غلونك"Metin Külünk أن نشر علانية خارطة(الوطن الموعود) تحت اسم "تركيا الكبرى"(الحرة /٢٧ أغسطس/آب ٢٠٢٠) التي شملت محافظات الموصل، وكركوك العراقيتين، وحلب وإدلب السوريتين، ومساحات

واسعة من شمال اليونان، وجزر بحر إيجة الشرقية، ونصف بلغاريا، وقبرص، وأرمينيا، إلى جانب مناطق واسعة من جورجيا، معتبراً أن هذه الخريطة هي حدود تركيا التاريخية قبل معاهدة لوزان وهي الحدود التي ستصل إليها الدبابات التركية وأقدام الجنود الأتراك ليفرضوها على العالم.

العثمانية الجديدة التي يمجّدها أردوغان ويتباهى بها في كل حين وأوان، هي في جوهرها نزعة قومية/ طورانية مخادعة ومراوغة في لبوس إسلاموي، تنطوي على أهداف توسعية وتوجهات نحو الامتداد والهيمنة كما يبدو واضحاً. وهو يبرر ضرورة هذه الهيمنة التركية انطلاقاً من قناعته إن النزاعات التي تشهدها معظم دول المنطقة وحالة الفوضى التي تسودها هي في جذرها تعود إلى الخطيئة التاريخية لهذه الدول، المتمثلة في انسلاخها عن الدولة العثمانية، وهي تدفع ضريبة هذه(الخيانة) الآن، ولهذا فأن العودة للخضوع للسيادة التركية هو وحده الكفيل بالتكفير عن تلك الخطيئة، والسبيل لعودة الاستقرار والازدهار إليها. وهذا ما يسوغ لتركيا أيضاً الحق في التدخل والوصاية عليها.

من هذا المنطلق يسعى الرئيس التركي إلى بعث الأمجاد الغابرة وإحيائها وتأجيجها مع رهط من القوميين الشعوبيين الأتراك والإسلاميين. ويستثمر بدوغمائية مفرطة الدعاية في خطاب الهوية التركية الجديدة، التي تماه بين الإسلام التركي/ العثماني والمشاعر القومية الشعبوية السائدة في الشارع التركي ضمن رؤية واحدة لا تجد أيّ فصل بينهما. فالاستعراضات الطقوسية التي يمارسها أردوغان أمام الجمهور تقع في صلب منهجه للدعاية السياسية لمشروعه عن الهوية التركية. إذ يحاول تارة رفع شارة" الذئاب الرمادية" بيده أو شارة" رابعة" تارة أخرى، والقرآن بيده الثانية، أن يوحّد الجمهور وينظمه حول سلطته، بصفتها الوصية على قداسة المهمة الشرعية، التي قيضّ لها حياته. وهو المدافع عن المصالح المقدسة للجمهور ومستقبله ضد المؤامرات الخارجية، وما على الأخير سوى الاستسلام لهذا القدر والطاعة العمياء لإرادته.

كذلك تغذي بارانويا الاضطهاد في التاريخ العثماني الشعور لدى الرئيس التركي بضرورة إحياء وبعث الخلافة العثمانية، التي في قناعته كانت ضحية تآمر دولي. من هنا تخيّم هذه البرهة التراجيدية لتفككها على وجدانه القومي، تستحوذ على تفكيره وتتسلط عليه وتحثه بقوة على استعادة حلمه المفقود، ومثل حلم المؤمن اليهودي وشغفه بأرض الميعاد، تجعله يكفرّ بالخرائط السياسية القائمة وتدفعه لتمزيقها. إنها تتحكم بعقله السياسي كليّاً، وتلك حقيقة هو نفسه لا ينكرها . حلم استعادة أمجاد الامبراطورية العثمانية واسترداد إرثها الجيوسياسي المبدد.

يعيش الرئيس التركي نوستلجيا الخلافة العثمانية بكليته، فهو لا يخفي ولعه بالاستعراض التاريخي والاستشهاد بمآثر التاريخ العثماني، وهذا الولع لديه يعكس مظهراً من مظاهر جنون العظمة الذي

ادعاه ملوك الحق الإلهي. فضلاً عما سبق، لديه هوس بإظهار قوته وهيبة سلطته، بصفتها استمراراً شرعياً لسلطة أولئك الأجداد العظماء، ولهذا لا يتردد في استحضار الصور السلطانية والتقاليد في مراسيمه البروتوكولية، وغدا مألوفٌ عنه رغبته في استقبال ضيوفه الرسميين بأبهة استعراضية، في مشهد سريالي غريب، محاطاً بحرس شرف في زيّ إمبراطوري تاريخي، مستوحى من التاريخ العرقي التركي، تعكس التقاليد العسكرية للإمبراطوريات الست عشر، التي تأسست من قِبل الأقوام التركية على مدى العصور.

ومثل أيّ قومي تركي آخر، يعاني أردوغان من عقدة التاريخ، ولهذا يستهدف اخضاعه لمنطق قراءته الخاصة، ويعيد صياغته وفق منظوره الشعبوي وحاجاته، كي يبرر به تطلعاته التوسعية. ومن هذا الموقع يسعى إلى إنتاج قراءة جديدة بالتاريخ تقوم على إيجاد شرعية تاريخية ونسب للقومية التركية أبعد وأعمق من التاريخ المعروف. وكثيراً ما يتباهى أردوغان بهذا التاريخ، وعلى الدوام يستلهم بطريقة استعراضية دماء وأرواح أجداده ويشير إليها في خطبه كي يشرعن قراراته السياسية في مواجهة منتقديه. إن هوس الرئيس التركي بالتاريخ العثماني ونزعة العثمنة يتجليان بوضوح في طقوسه الرئاسية وعبر المظاهر الرسمية البروتوكولية، كما تمت الإشارة، وكذلك غير الرسمية الشعبية.

لا تنفصل النزعة التوسعية العثمانية لدى أردوغان عن قناعته بضرورة وصاية العنصر التركي على بقية الشعوب. فهو يؤمن بعمق بخرافة تفوق العنصر التركي والمسلمين الأتراك تاريخياً على بقية الأمم. ومن هنا يتطلع إلى استعادة الدور الإمبريالي للإسلام العثماني، وبالتالي جعل تركيا قوة دولية عظمى انطلاقاً من هيمنتها على الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. لهذا لا يجد الرئيس التركي حرجاً عادة في استعارة وانتحال ألسنة الشعوب المسلمة والحديث بإسمها. فهو يمنح نفسه الحق بالوصاية على مصير هذه الشعوب، ويقرر نيابة عن ملايين المصريين شكل النظام السياسي الأنسب لبلادهم وشرعية هذا النظام القائم من عدمها، وكذلك يريد أن يحدد مصير السوريين والعراقيين والليبيين، في الوقت الذي يلقي فيه المواعظ الأخلاقية على شعوب المنطقة، فضلاً عن دروسه المجانية المملة للأوروبيين عن الديموقراطية وحقوق الإنسان الخ...

هنا كمن الثقب الأسود لأحلام أردوغان وطموحاته المنفلتة، التي كانت تدفع بسياسته خارج حدود الزمان والمكان وعلى الضد من منطق التاريخ. إذ اعتقد بإمكانية تغيير الأنظمة عربية واستبدالها بأنظمة إخوانية تابعة لتركيا، بدءاً من تونس وليبيا وصولاً لمصر وسوريا وجميع الدول التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية. وبعد فوز الإخوان في مصر ووصولهم للحكم انفجرت الأحلام العثمانية، التي كانت تثقل عقله وتستبد به، وصار مؤمنا بشدة بإمكانية استعادة المجد الإمبراطوري

وإعادة إحياءه، كقوة مهيمنة في الشرق الأوسط. وشرع حالئذ بفرض وصايته على الدول والحكومات الإخوانية بغرض إعادة دمجها وتشكيل منظومة سياسية واحدة بقيادة تركيا. وقد أوكل للإخوان المصريين في هذا السياق دوراً مركزياً، لا يقتصر على مصر فحسب، إنما يشمل بقية دول الحراك السياسي العربية بهدف مساعدة تنظيمات الإخوان المسلمين فيها على سرقة ثورات الربيع العربي وتمكينها من الوصول إلى السلطة في بلدانها.

- الربيع العربي وأسلمة الحراك السياسي:

يعترف داؤود أوغلو في كتابه(العمق الاستراتيجي) بأن تركيا اقترفت أخطاء سياسية جدّيّة في محيطها الاقليمي... بابتعادها عن قضايا الشرق الأوسط، حتى غدت غريبة عن محيطها الجيوثقافي للمنطقة)(أوغلو، ٢٠١١، ص ٩٥) ورأى أن على تركيا أن تستعيد نفوذها مجدداً في الفضاء الجيوسياسي للإمبراطورية العثمانية بشتى الطرق والوسائل الممكنة، ومنها الاعتماد على أذرعها التنظيمية والأيديولوجية مثل جماعات الإخوان المسلمين وغيرها. وكانت لديه قناعة بأن الأنظمة العربية، التي ستسقط بفعل انتفاضات الربيع ستخلّفها أنظمة إسلامية، فيتاح لتركيا عندئذ عبر أذرعها الأيديولوجية والتنظيمات الإسلامية، تأسيس حزام جيوسياسي تحت الهيمنة التركية. كان داؤود أوغلو متحمساً للغاية أول الأمر، قبل أن يستقيل ويبتعد عن أردوغان تالياً، وكان حالماً وعلى يقين بأن الأتراك سيربطون دمشق بسراييفو وبنغازي بأرضروم. ومنذ هذه البداية يمكن العثور على دافعين متناقضين وراء النشاط السياسي التركي الجديد في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي والتأكيد عليهما(أولهما العثمانية الجديدة، التي تشجع التدخل خارج الحدود على نحو يعزز نفوذ تركيا، وثانيهما النزعة الكمالية الناشئة عن الفوبيا الكردية في العقل السياسي التركي، التي تتوجس من خطر أي شعور قومي كردي محتمل على الشعور الوطني التركي، أي حماية القومية العلمانية التركية وهويتها الوطنية الجامعة..)(نوفل، ٢٠١٠، ص ٧٣)

في بداية الأمر، أغرت انتفاضات الربيع العربي تركيا بإتباع أسلوب غير مباشر للترويج لنظامها السياسي بعدّه نموذجاً بديلاً عن النظم العربية الآخذة بالسقوط الواحد تلو الآخر(ويتضح ذلك من خلال عدد كبير من المؤتمرات واتساع نطاق الكتابات التركية، التي تشير إلى كيفية التأثير في المنطقة العربية عبر الترويج لمفهوم العلمانية التركية، التي لا تتعارض مع الإسلام)(إلياس، ٢٠١٦، ص ٢٠١). ومن هذا المنطلق تحمس عدد كبير من الباحثين والأكاديميين العرب والمسلمين لهذه الأطروحة التي عدّوها بمثابة إعلان موت للإسلام السياسي، وبداية إعلان إسلام حداثي لا يتعارض مع العلمانية. لكن وقائع وتداعيات(الربيع العربي) برهنت للنخبة الإسلامية الحاكمة في تركيا وفرضت عليهم القناعة بأن المدخل المباشر، الديني الإسلامي، وبخاصة الإسلام

العثماني، هو المدخل الأجدى الذي يخول تركيا حق التدخل في الصراعات الإقليمية ويسوغها، كما حصل في ليبيا وسوريا مثلاً. من هنا يبرز التساؤل عن الكيفية التي وظّف بها أردوغان الإسلام عملياً في بلدان(الربيع العربي) وفي مناطق النزاعات، وفي عمليات التحشيد والتعبئة؟

لقد استدعت الوصاية على العالم الإسلامي، وإثبات تفوق تركيا ونفوذها في الشرق الأوسط، السيطرة على الحركات والمنظمات السياسية والاجتماعية ذات التوجه الإسلامي، وتأسيس مرجعية مركزية تركية لها. وانطلاقاً من هذه القناعة استغلت تركيا وقائع الربيع العربي لتنسج علاقات، سرّية وعلنية، مع الجماعات الإسلامية المتشددة على قاعدة المصالح والمواقف الأيديولوجية المشتركة. هذا الأمر بدا واضحاً من خلال تورط تركيا المفضوح في دعم الجماعات الإسلامية المتشددة كالإخوان المسلمين والقاعدة وتنظيم الدولة سواء في مصر أم في سوريا أم في ليبيا وتونس ...الخ حيث(أتاح انتصار الإسلاميين في الانتخابات التونسية والمصرية لحزب العدالة والسلطة التركية أن تظهر نفسها(أخ أكبر) للإخوان المسلمين، الذين حققوا هنا وهناك تشكيلات سياسية جديدة، موسومة بكلمة(عدالة) و(تنمية) تقليداً لحزب العدالة والتنمية. انتقلت تركيا حينذاك من(سياسة الجوار) إلى استراتيجية شرق أوسطية أكثر شمولاً، وخاصة على الصعيد العربي، وفي هذا السياق جعل أردوغان من نفسه بطل القومية العربية السنية، من قطاع غزة إلى حلب... وجعل تركيا بطلة النزعة السنية... التي تماهت لديها مع الهوية القومية التركية...)(بيريبه، ٢٠١٨، ص. ص ١٧٩-١٨٠) هكذا طرقت العثمانية الجديدة أبواب دول المنطقة ومجتمعاتها بقبضات جماعات الإسلام السياسي، ولاسيما الأذرع الخفية للإخوان المسلمين.

بادئ ذي بدء، تمّ اللجوء إلى استراتيجية السيطرة الناعمة Soft Power بغرض زرع الأفكار والمعتقدات والقيم السياسية في المجتمعات الإسلامية والعربية خاصة، على نحو يؤثر على سلوك الأفراد وقناعتهم وتوجهاتهم وخياراتهم السياسية، لفرض الدور القيادي الإقليمي الذي فقدته تركيا بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية وهذه كانت قناعة أحمد داؤود أوغلو. ويبدو كذلك أن صناع القرار الإسلاميين في تركيا قد استفادوا كثيراً من التجربة الإيرانية في(تصدير الثورة) عبر الاستعانة بجيش من الإعلاميين والكتاب والمؤرخين الإسلاميين الجدد، الذين سعوا جميعاً عبر وسائل الإعلام واستغلال البرامج التلفزيونية والمسلسلات، إعادة كتابة التاريخ العثماني والترويج له بعدة لغات، وبخاصة باللغة العربية، تهيئة الرأي العام العربي والإسلامي للسيطرة عليه وتوجيهه. تلك كانت أحد أبرز السبل الدعائية للسيطرة الناعمة المعتمدة، لإعادة بناء صورة العثمانيين في وعي المتلقي وبالتالي إحياء فكرة الخلافة لديهم مجدداً وإنعاشها.

على مسار آخر اعتمدت تركيا بصورة رئيسة على مؤسساتها الأيديولوجية في السعي إلى استقطاب مسلمي العالم وتوجيههم نحو أجندتها السياسية، سواء عبر بناء المساجد في جميع أنحاء العالم والهيمنة على المنابر وإظهار تركيا من خلالها كقائد للعالم الإسلامي. إذ قامت رئاسة الشؤون الدينية التركية(Diyanet) التي تكرّس دورها وتوسع نشاطها، خلال حكم أردوغان، حتى امتدّ إلى ١٤٥ دولة في العالم، بتعزيز نفوذ الإسلام التركي والتبشير به وسط المسلمين، وذلك عبر الالتزام بالتوجيهات العقائدية والخطب التي كانت تلقى في المساجد التركية وذلك طبقاً لخطاب الحزب الحاكم وأهدافه السياسية. وفي السياق نفسه عمدت تركيا إلى تسخير(الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين) المؤسسة التي تضم آلاف المعممين المحسوبين على التيار الإخواني، والاستعانة به للتبشير بطموحات أردوغان السياسية والأيديولوجية وإسباغ الشرعية الفقهية والدينية على التوسع التركي في المنطقة. وقد بلغت درجة المروق الديني والتورط السياسي لهذه المؤسسة حدّاً أن رئيسها ومنظرها الشيخ القرضاوي، ومعه كتائب الإفتاء من المعممين، كفّروا كلّ معارض سياسي للرئيس التركي أو من يقف في وجه طموحاته السياسية وبموازاة ذلك أفتوا معاً بوجوب التصويت له في الانتخابات الرئاسية، ومناصرته في مشاريعه السياسية ونصرته في حروبه والجهاد ورائه.

ومن الأذرع الأساسية للسيطرة الناعمة التركية وكالة التعاون والتنسيق التركية(تيكا) TIKA التي تماثل في الدور والمكانة الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID، التي عكست ظاهراً الدور التركي القوي في مساعد المسلمين في المناطق التي تشهد نزاعاً في العالم. إلا أن جوهر دورها كان أمنيٌ وسياسي دعائي بالدرجة الأولى.

بيد أننا نشهد تحولاً حاسماً في السياسة التركية مع اندلاع الاحتجاجات في سوريا. ويعدّ انخراط تركيا المباشر في الأزمة السورية، بثقليها السياسي والعسكري، إيذاناً بدفن(الدبلوماسية الناعمة) التي اعتمدتها تركيا وأعلنها حزب العدالة والتنمية منذ مجيئه للحكم. فقد مثّلت بداية التحول إلى الدبلوماسية الجهادية العنيفة، بخاصة عندما استعانت تركيا بالمسلحين الجهاديين للمعارضة السورية وفرضتهم على واجهة الحراك السياسي، واستخدمتهم في معاركها شمال سوريا، وفي الهجوم على المناطق الكردية، مثلما استخدمتهم كمرتزقة لأجندتها في ليبيا تالياً. إن تورط تركيا في سياق الانتفاضة السورية بشكل مباشر، يعدّ وأداً للمبدأ الاستراتيجي التركي الذي أعلنته(صفر المشاكل مع الجيران) وقد أملى هذا التدخل الاعتبارات الأمنية القومية التركية والمصالح الاستراتيجية لتركيا بالدرجة الأولى. لاسيما بعد بروز الدور النوعي للكرد السوريين كقوة عسكرية وسياسية منظمة لا يستهان بها في مواجهة تنظيم الدولة الإسلامية، الأمر الذي كان من شأنه أن أخرج الرهاب القومي التركي من قممه.

وهكذا وجدت تركيا أنها تواجها تحدياً خطيراً لأمنها القومي في الحراك السياسي السوري، ومن الأفضل لها الاستثمار فيه واحتوائه، وفي مرحلة تالية السطو على مساراته وتوجيهها طبقاً لمصالح أمنها القومي.

اعتبرت تركيا الجهاديين من آسيا الوسطى قوّة بشرية داعمة لمشروعها السياسي والأيديولوجي وكانوا موضع ترحيب لديها. ولهذا سمحت لهؤلاء بالمرور من أراضيها واستخدام الأخيرة كقاعدة خلفية لوجستية لنشاطاتها. حيث وفّرت تركيا لمجموعات جهادية وعلى رأسها(الحزب التركستاني الإسلامي) منصة وبنية تحتية لوجستية هامة لنشاطها. هكذا كانت السلطات التركية تسهّل للجهاديين من كل القوميات الآسيوية المسلمة، كالأيغور والأوزبك والقرغيزي ..الخ القدوم لتركيا ومن ثم تحثّهم على الجهاد في سوريا بالدرجة الأولى ضد وحدات حماية الشعب الكردية YPG، مستغلة المشاعر الدينية والعرقية لديهم ضد العلمانيين واليسار والكرد. ونجحت تركيا في حشد هؤلاء والدفع بهم في أتون حربها في سوريا خدمة لأجندتها. إذ وفقاً لبعض المصادر فقد سافر(في عام ٢٠١٣م وحده حوالي ٣٠,٠٠٠ من هؤلاء الجهاديين الإسلاميين، معظمهم من المتطرفين، عبر تركيا وانخرطوا في الصراع السوري)(Cagaptay,2020, P.122) حتى باتت الحدود التركية في تلك المرحلة مجرد خط مرسوم على ورق.

بالمقابل دأب الرئيس التركي على الظهور، باستمرار، بمظهر (المحارب للإرهاب) وكان ينأى بنفسه عن التنظيمات الإرهابية مثل داعش والنصرة، وفي الأحوال التي كان يتعذر فيها إخفاء علاقة مؤسسات الدولة التركية بها، كان يعمد على إضفاء طابع من الغموض والتضليل على تلك العلاقة، بالرغم من الوقائع والتقارير الإعلامية الدامغة التي أثبتت العلاقة الوثيقة بين نظامه وموظفيه مع التنظيمات الجهادية المتطرفة. فقد ظهر جلياً وثوق تلك العلاقة بخاصة بعد سيطرة تنظيم الدولة على مساحات واسعة من الأراضي السورية/ العراقية عام ٢٠١٤، وبخاصة المناطق النفطية منها. إذ نشأت شراكة حقيقية بين الطرفين كانت قائمة على المنافع الأمنية والاقتصادية المتبادلة. ورغم محاولات تركيا التستر على تلك العلاقة وابعاد الشبهة عن نفسها، إلا أنها لم تكن بمنأى عن عاصفة التشهير والفضيحة على مستوى الإعلام العالمي.

علاوة على ما سبق، كشفت عشرات التقارير الأمنية والمقالات والوثائق المسربة عن علاقات تركيا ومؤسساتها مع تنظيم الدولة الإسلامية. فهذه العلاقة الحميمة لم تقتصر على التعاون في شراء وبيع النفط المسروق فحسب، إنما أكدت تلك التقارير على استخدام البنوك التركية في تحويل الأموال لمقاتلي التنظيم والقاعدة، كذلك ذكرت العديد من وسائل الإعلام التركية وأشارت إلى استخدام التنظيم مستشفيات جنوب شرق تركيا في علاج الجرحى من المقاتلين مجاناً والعودة

والعبور ثانية للقتال في سوريا. دون ذلك اتاحت تركيا حدودها لمرور جميع متطرفي العالم وتلقي التدريب والتنظيم على أراضيها.

في نهاية المطاف وجد المهزومون من مقاتلي التنظيم في تركيا ملاذاً آمناً بعد فرارهم من معارك باغوز وسقوط عاصمتهم وآخر معقل لهم في آذار ٢٠١٩. وهناك أعادت السلطات التركية تأهيلهم ودمجهم في التنظيمات المسلحة للمعارضة السورية الجهادية وأعادت تدويرهم تحت عناوين مختلفة. ولم تتردد تركيا في استخدامهم ثانية في تدخلها العسكري سواء في معاركها شرق الفرات أو في ليبيا وإرسالهم للقتال هناك إلى جانب قوات سلطة الوفاق. وتؤكد التصريحات الرسمية، التي صدرت عن الرئيس التركي رجب طيب أردوغان وعن مسؤولين أتراك آخرين، إضافة لعشرات التقارير الإعلامية، ضلوع تركيا ومسؤوليتها بشكل مباشر عن عمليات نقل مقاتلين سوريين إلى ليبيا واستخدامهم كمرتزقة، كما كشفت شهادات مقاتلين.. بعض التفاصيل عن دور تركيا، فقد كان الرئيس التركي قد أكد في مقابلة مع قناة CNN Turk بتاريخ ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٠م عن وجود فرقة محاربة أخرى، وهم ليسوا من عناصر الجيش التركي، في إشارة ضمنية إلى وجود مقاتلين من جنسيات أخرى، للقتال في ليبيا)(سوريون من أجل تحقيق العدالة، مايو٢٠٢٠، ص ١٩)

أردوغان هو سياسي براغماتي ووصولي من الطراز الأول، فقد روّج لخطابه الإسلاموي الشعبوي، بوصفه مدافعاً عن مصالح الشعوب الإسلامية حتى قبل اندلاع الاحتجاجات في البلدان العربية وكان يتخذ باستمرار من شعارات من قبيل(تحرير القدس) و(و وحدة العالم الإسلامي) و حماية المقدسات الإسلامية مبرراً لسياساته التوسعية. ولم يتردد في أية لحظة في حتى في استغلال محنة الفلسطينيين لأجل الدعاية السياسية لمشروعه، إذ وجد في القضية الفلسطينية ومسألة القدس وحماية الأماكن المقدسة منصة لاستعراض مواقفه والاستثمار فيها، دون أن يكلّفه ذلك أيّة ضريبة سياسية باهظة. إن الهياج الانفعالي الاستعراضي الذي أظهره بوجه رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريس في لقاء(دافوس) وعلى أثر الهجوم الإسرائيلي على غزة ٢٠٠٩م ومغادرته القاعة محتجاً بتلك الطريقة المسرحية لم تنعكس قط على التعاون السياسي والاقتصادي والأمني الوثيق بين تركيا في عهد أردوغان وإسرائيل. كذلك الأمر فيما يتعلق بكرنفال الاحتجاج الزائف والصخب الذي افتعله حينما أعلن ترامب عن موافقته بنقل السفارة الأمريكية للقدس. فهذا الصخب لم يكن بسبب قناعة أردوغان بأن مدينة القدس هي فلسطينية/ عربية وللشعب الفلسطيني حق في السيادة عليها، إنما لأنه كان يعدّها عثمانية ولأن لتركيا حقاً تاريخياً مقدساً فيها وينبغي أن يكون لها دور في تقرير

مصير المدينة، حتى لو غدت عاصمة لإسرائيل، ومن هذا المنطلق يعدّها ورقة باهظة الثمن للمساومة عليها خدمة لمصالح السياسة التركية.

بدا جلياً أن البراغماتية الفجة واللامبدئية كانتا تطبعان سلوك أردوغان في تعاطيه مع وقائع(الربيع العربي) وموقفه منها، وهي تتضح بأقوى صورها في خطابه أمام تجمع انتخابي بولاية قوجه إيلي(٣١ آذار ٢٠١٩م) حين خاطب الجمهور قائلاً: إن الذين حاولوا نقل الربيع العربي إلى بلدنا ودفعنا إلى شتاء حالك، يتجرعون الآن مرارة تلك الكأس. المثير في هذا الكلام إنه صادر عن شخص طالما اعتبر نفسه الراعي الأول والداعم للحراك السياسي وانتفاضات(الربيع العربي)، وكانت الصحافة والمنابر الإعلامية تصفه بأنه زعيم الإسلاميين، الذي يقود الربيع العربي، إلا أنه يرفض بحزم أن يشهد بلاده مثل هذا الربيع ويستنكره ويزدري بعواقبه ونتائجه... ثم يضيف أردوغان: كان شتاء حالكاً أريد به أن يصل بلاده. والحال أن في بداية حراك(الربيع العربي) كان يعلن بحماسة إنه يساهم في توعية الشعوب العربية وزيادة اهتمامهم بالديمقراطية التي ستساعد على نمو وتقدم البلدان العربية.

-القومية الدينية: من شارة رابعة إلى الذئاب الرمادية.

يسعى أردوغان إلى إعادة تشكيل تركيا من الأعلى إلى الأسفل على مقاس طموحاته وصورته، إسلامية وقومية، محافظة في الهوية السياسية. وبخلاف قناعة الأتاتوركيين فإن المذهب الأيديولوجي للعثمانيين الجدد يشرعن توسيع النفوذ القومي للعنصر والدولة التركيين انطلاقاً من القيم الدينية الإسلامية وتأسيساً على الحلم الإسلامي المفقود بعودة الخلافة، دون النظر إلى الاختلافات القومية والمذهبية بين الشعوب المسلمة. ويزعم هؤلاء أن هذا هو السبيل الوحيد لإحياء الهوية الأساسية للأمة الإسلامية واسترداد المجد الضائع للشعوب الإسلامية في مواجهة السياسات الرأسمالية وقوى الشر، التي قسمتها إلى قوميات ضعيفة متناحرة.

وعلى الرغم من دراية أردوغان ومنظري الإسلام السياسي و(العثمانية الجديدة) بمدى التنوع والتعقيد الذي ينطوي عليه مفهوم الوحدة أو (الأمة الإسلامية)، إلا أن هذا المفهوم على مستوى التطبيق أو الممارسة السياسية يرتدّ لديهم إلى الأفكار الجوهرانية عن الإسلام بوصفه كياناً واحداً، متماهياً مع نفسه، متجانساً، ذات سمة موحدة، ينبغي أن يتحقق مجدداً ويتجسد تاريخياً بعودة السيادة التركية(العثمانية) على العالم الإسلامي. ولهذا شرعت الحكومة التركية الإسلامية منذ البداية في توظيفه في البروباغندا الموجهة للمسلمين في داخل تركيا وخارجها، كمفهوم مثالي للتعبئة الأيديولوجية خدمة للأجندة السياسية التركية في الهيمنة واستعادة النفوذ. علماً أن الاستثناء الوحيد في تصوّر أردوغان وحزبه عن تجانس العالم الإسلامي، وبخلاف بقية منظري الإسلام السياسي، هو اعتقادهم

بتفرد الأمة التركية وتميّزها وضرورة قيادتها للعالم الإسلامي. وفي هذا التصور يتفق أردوغان مع أتاتورك ويفترق عنه في نزعته الانعزالية.

يعتقد أردوغان بأن أتاتورك عندما ألغى في عام ١٩٢٤م مؤسسة الخلافة، المنصب الديني والدنيوي الأعلى في العالم الإسلامي، شكّل عمله هذا أهمية استثنائية وعلامة فارقة في تاريخ تركيا، حيث جرّدها من أهميتها المركزية ومكانتها في قيادة العالم الإسلامي، مثلما جرّدها من الرمز القوي لهويتها الإسلامية ومشروعية قيادتها للعالم الإسلامي.

وجد أردوغان أن هذه الخطوة، التي كرّست القومية العلمانية، لم تعد تشكّل تعبيراً كفؤاً ومناسباً لأحلام تركيا المعاصرة وطموحاتها الجديدة في العالم. فضلاً عن أنها كانت تتعارض على الدوام مع القيم العامة الأخلاقية والدينية للجماعة والشكل التقليدي للهوية القومية التركية، المتمثل بالإسلام العثماني التركي. من هنا راح المفهوم الأخير يحتل مكانة مركزية في خطاب الهوية لدى حزب العدالة والتنمية، الذي عدّ القومية العلمانية في هذا السياق الحليف الأيديولوجي للغرب الرأسمالي، الذي يريد إبقاء تركيا فاقدة لدورها ومكانتها العالمية ويخشى من عودتها إلى مسرح التاريخ كدولة عظمى.

وبالرغم من أن الدولة القومية العلمانية، كانت تعدّ تعبيراً عن إرادة العنصر القومي التركي، كما أعلنت عن نفسها في شعاراتها(شعب واحد، لغة واحدة، علم واحد) إلا أن الأردوغانية راحت تنظر إليها من وجهتي نظر متعارضتين. الأولى أنها الوريث الشرعي للإمبراطورية العثمانية الشاملة وامتداد لها. الثانية أنها تعبير محدود ومشوه عن الكيان المفقود، فرضته الإرادة الكولونيالية وقيّدته جيوسياسياً، لتحلّ محله دول قومية عديدة، تتبع قوميات مسلمة مختلفة وغير تركية، وهي عاجزة بمفردها عن القيام بدورها على المسرح الدولي مالم تتحد مجدداً. إن التطلع إلى المجد التركي/ العثماني هو ما يوحد القومية الأتاتوركية مع الأردوغانية، وهو الهدف الذي يشتركان معاً فيه، وإن اختلفا في النظرة إلى التاريخ العثماني وتفسيره.

وبالمقابل تعد الأردوغانية، ليس الإسلاميين فحسب، إنما أيضاً القوميين الترك المهووسين بإعادة أمجاد الأمة التركية أو الإمبراطورية العثمانية على قاعدة الإسلام التركي. إذ ماتزال توجهات المواطنين الأتراك السياسية ونظرتهم إلى مكانة تركيا في العالم محكومة بقدر كبير بذاكرتهم المشتركة ونظرتهم الرومانتيكية للإمبراطورية العثمانية المنهارة، التي لا يزال صدى أمجادها تتردد بقوة وعمق في وجدانهم.

إن الترابط الوثيق بين الخطابين الديني والسياسي القومي يبرهن على أن الدين صار يعدّ(جزءاً لا يتجزأ من بنية الأيديولوجية القومية والطائفية للجموع الشعبية، بمستطاعه تقديم أساس أخلاقي

مقدس، على نحو متميز، للفعل السياسي ويمنح شرعية لمؤسسات الدولة) Hibbard,2010,P.19 () التركية وأهدافها الأمنية والسياسية. ومع إصراره على أن الإسلام هو جوهر السياسة التركية، التي تتماهى داخلياً وخارجياً، كما يزعم، مع القضايا الإسلامية، يبرز السؤال بإلحاح، ما طبيعة وهوية الإسلام الذي يدعو إليه منظرو الإسلام السياسي التركي ويبشّر به رجب طيب أردوغان كهوية جامعة للأمة الإسلامية وموحدة للشعوب المسلمة تحت راية الترك؟ أي إسلام يرغب في فرضه على المسلمين وما خصائصه؟ ما هو الإسلام، الأداة أو الذريعة التي سوّغ بها أردوغان خطابه السياسي ودعوته إلى العثمانية الجديدة؟ كيف وظّف أردوغان هذا النمط من الإسلام بصورة عملية في مناطق النزاعات وفي عمليات التعبئة والتحشيد والتجنيد؟

إن تتريك الإسلام اتخذ أحيانا كثيرة أشكالاً فجة من الادعاء بالتفرّد والتميّز على يد رموز الإسلام السياسي التركي. ولا يتردد الرئيس التركي، السياسي الشعبوي، من استخدام وتوظيف هذه المقاربة البراغماتية لأجل أجندته السياسية وتعبئة قاعدته اليمينية. ويلاحظ بوضوح، سواء في المواقف أم الآراء، كيف يتلاعب أردوغان عن عمد بالمشاعر الدينية والأحلام القومية الشعبية بهدف خلق استقطاب داخل الجمهور التركي حول زعامته. وبسبب من هذا النزوع الشعبوي والبراغماتي الذي طبع سلوك أردوغان وعقله بطابعه الخاص، فقد سعى إلى صهر المبادئ والقيم الإسلامية وأعاد صياغتها لإضفاء طابع قومي عليها، حتى خلص إلى استنتاجات فجّة وكاريكاتورية، موغلة في الشعبوية القومية، تخطى بها المقدس الإسلامي حين صرح إن المقصود من سورة الفتح القرآنية كان(فتح القسطنطينية) أي استنبول.(انظر: مجموعة باحثين،٢٠١١، ص٨٤)

لا يخفى آباء الإسلام السياسي التركي حماستهم للإسلام التركي في خصوصيته القومية، التي تعكس الشخصية التركية وتاريخها الإسلامي الخاص. الذي تطور في السياق التاريخي للإمبراطورية العثمانية، كزمان مرجعي لها، واكتسب شكله في نطاقها وكانت خاضعة لسيادة عنصر قومي دون بقية الشعوب المسلمة. ولهذا فإن الإسلام التركي ينطوي على عناصر ثلاث ثابتة: المقدس، الدولة الشاملة، التأكيد على دور العنصر التركي وتفوقه. هذه القناعة يشاركها رئيس الوزراء الإسلامي الأسبق نجم الدين أربكان مع الداعية فتح الله گولن ويمثلها راهناً الرئيس التركي أردوغان في ممارساته السياسية ومواقفه. إذ يعتقد هؤلاء جميعاً مع أنصارهم بأن هنالك إسلام تركي مطبوع بطابع الهوية القومية التركية وخصائصها. إنهم يؤمنون بعمق بعبقرية وتفرّد التاريخ التركي، وبالدور المميز للترك في نشر الإسلام وتأسيس الإمبراطورية العثمانية. وهذا الاعتقاد يستند إلى حس مشترك أعمق لديهم بأن الترك تمّ اختيارهم لدور قيادي ورائد في العالم الإسلامي.

بدوره يعتقد الداعية الإسلامي التركي فتح الله گولن بأن هنالك خصوصية للإسلام التركي، أو كما يسميه بـ" الإسلام الأناضولي" يفصل بين إسلام تركيا وإسلام العرب وغيرهم من المسلمين. وهو يعتقد إن إسلام الأتراك هو مزيج بين الإسلام والقومية التركية... ويرى گولن، إن الحفاظ على هذا يحفظ لتركيا أرثها العثماني، الذي تميز بالتنوع العرقي والديني واللغوي)(المصدر السابق، ص ٢٠٤)

من هنا برزت هوية أيديولوجية تلفيقية من عناصر ورموز دينية وقومية، تتشابك معاً بعمق لأجل خلق وعي مشترك بالانتماء، وتؤثر بعمق في تشكيل تتضامن جمعي بين الجماعة القومية والطائفية. هنا يغدو الدين متشابكاً ومتماهياً مع الشعور الوطني، ويستحضر الدين في هذا السياق عادة لتوضيح الأصالة والتفرد الثقافي والعرقي للجماعة، ولتسويغ السياسات والأهداف من خلال ربط مطالبها بشرعية فوق بشرية. كذلك تستحضر الموارد النظرية للدين لتقدم إطاراً شرعياً لتفسير الأحداث السياسية وتبرير مطالب السلطة. نخلص من هذه المقدمة إلى التوصيف التالي الأكثر دقة للإسلام التركي: بأنها مقاربة أيديولوجية تركية للإسلام، لكن عوضاً عن أن تقترح هذه التوليفة الانكفاء إلى النص القرآني المقدس كمرجعية وحيدة، فإنها تشترط العودة إلى(الثقافة الوطنية) و(الإرث والتقاليد القومية) التركية، بصفتها نتاجاً تاريخياً للتوليف بين الماضي الخاص لعائلة الشعوب التركية من جهة، والإسلام من جهة أخرى. وطبقاً لهذه الرؤية فإن الإسلام الذي خرج من الجزيرة العربية لم يعد هو هو كما كان لحظة انتشاره، فقد تفاعل بعمق مع الثقافة التركية، التي استطاعت البقاء والاستمرار من خلاله. وبدورها فقد أثرت هذه الثقافة بعمق في الإسلام وأغنته وأمنت له القوة والحماية ومكنته من ألاّ يتعرض للجمود...التوليفة إذن أيديولوجية قومية تعلن عن نفسها بهذه الصفة وتحدد الشخصية التركية بالإسلام كمرجعية دينية وأخلاقية ومكوّن للهوية.(انظر: نوفل، ٢٠١٠، ص.ص ٣٠-٣١)

يبدو جلياً أن الأولوية في هذا السياق تمنح في تعريف هوية الإسلام التركي للعقائد والممارسات الدينية الخاصة بالجماعة القومية على حساب الإسلام كدين كوزموبوليتي، من أجل غايات وأهداف سياسية. الأمر الذي من شأنه أن يسبغ قداسة على ممارسات السلطة السياسية ومزاعمها في تمثيل الأمة في نظر الأغلبية العرقية والطائفية. إنه ليس إسلام مجرد من الاهتمامات السياسية لإحدى الجماعات القومية، بل إسلام ذرائعي مدنس بالأهداف والمشاريع السياسية العملية، يعبر عن رغبة دفينة في الوعي الجمعي لاستعادة الهيمنة والنفوذ على العالم الإسلامي.

الإسلام العثماني، الذي يبشّر به أردوغان يعدّ لاصقاً أيديولوجياً للهوية، بديلاً عن القومية العلمانية المحدودة التي كرّسها أتاتورك. فقد(عمد الكماليون إلى تأسيس دولة وطنية جديدة ارتكزت على القومية العرقية التركية، وأحلّوا منظومة قيم وطنية جديدة محل قيم الإمبراطورية العثمانية، التي

كانت متعددة الأعراق والأديان، وذات طابع إسلامي(Fuller,2008,P.28)) عموماً. وهكذا أفسح زوال الدولة العثمانية المجال لدولة قومية ناشئة للترك، قادت ممارساتها السياسية داخلياً إلى محو التعدديات الدينية والقومية، التي عرفتها الإمبراطورية العثمانية محواً شبه تام.

إن الإسلام التركي المنشود بصفته هوية ورافعة لتبرير الدعوة للعثمانية الجديدة، يعني بقول واحد عودة تركيا وريثة الإمبراطورية العثمانية إلى عمقها الجيوسياسي واستعادة نفوذها فيه، كي تتجاوز خطأ الانزياح التاريخي نحو القومية العلمانية. بدوره يؤكد أردوغان إن الإسلام التركي، ذي النزعة العثمانية، الذي يتبناه حزبه هو الكفيل باستعادة الأمجاد العثمانية التي بددتها معاهدة لوزان، وبموجبها تم اقتطاع أجزاء واسعة من أراضي الإمبراطورية وتشكلت منها الدول القائمة الآن، وهي تمتد من شمال أفريقيا إلى آسيا الوسطى والخليج العربي. وهو يعلن بحماسة ويقين مفرط في خطاب أمام أنصاره: تركيا هي أكبر من تركيا الحالية، يجب أن تعلموا ذلك، لذلك لا يمكن أن نكون محاصرين في ٧٨٠ ألف كم، مساحة تركيا الفعلية. الآن حدودنا الجسدية والقلبية مختلفتان. قد يكون إخواننا في الموصل وكركوك والحسكة وحلب وحمص ومصراته وسكوي وجزيرة القرم، ققفاسيا، جميعها هي خارج حدودنا الفعلية، لكن ضمن حدودنا العاطفية وفي قلوبنا. سنتصدى لأولئك الذين يحاولون تحديد تاريخ تركيا وأمتنا وتقييده بـ تسعين عاماً... يجب أن نتخذ كل التدابير لنجمع أمتنا مع ثقافتها وحضارتها وتاريخها العثماني. ويصرّ أردوغان على أن الإسلام العثماني(هو محور السياسة التركية، ويجب أن تتماهى السياسة الخارجية للبلاد مع القضايا الإسلامية، ويعتقد بأن هذه هي الطريقة التي سيعيد بها أيام المجد العثماني، ويجعل من تركيا قوة عظمى مرة أخرى) (Cagaptay,2008, P.54)

برز السؤال للمرة الأولى، مع مجيء الإسلاميين لسدة الحكم في تركيا، حول هوية تركيا، هل ينبغي تعريف الدولة من منظور ديني أم قومي علماني؟ وبصيغة أخرى أيٌّ من هذين العاملين يمكن منحه الأسبقية ويمكنه أن يؤدّي دوراً أكثر مركزية في تعريف هوية الدولة والأمة والمواطنة التركية؟ وهل يريد أردوغان أن يحوّل تركيا إلى دولة قومية دينية أم الإسلام إلى دين قومي للدولة، يدعم الأسس القومية لنشوء إمبراطورية تركية مجدداً؟

في بداية مشواره اتسمت هوية أردوغان السياسية بسمات إسلامية نجم الدين أربكان وبالمنظمات المختلفة(للرؤية القومية) التي مارس خلالها بعض المسؤوليات. كان إسلامياً تركياً ممعناً في القومية. (انظر: بيرييه، ٢٠١٨، ص٩٩) وعند صعوده للحكم قدم أردوغان نفسه على أنه لا يحمل مشروعاً إسلامياً سياسياً في مواجهة علمانية الدولة. ومع تطور ميله للاستئثار بالسلطة ونزوعه نحو الاستبداد أخذت أحلامه اليوتوبية بإعادة إحياء الإمبراطورية العثمانية وتأسيسها مجدداً تبدو بوضوح

في خطابه السياسي، وبخاصة بعد واقعة سفينة مرمرة ٢٠١٠م، التي شكّلت إيذاناً بتعاونه مع الجماعات الإسلامية. من هنا راح يقدم نفسه كزعيم إسلامي شامل. ودفعت انتفاضات(الربيع العربي) أردوغان إلى الانخراط بحماسة فيها وتبنيها ومن ثم إعلان نفسه كراع وداعم رئيس لها، من موقعه كوريث للوصاية العثمانية على الشعوب العربية والإسلامية، التي عدّها مصدر سلطة تخوله حق إسباغ الشرعية على تدخله وتبرر له الانخراط في النزاعات الإقليمية كما حصل في سوريا و ليبيا ومصر... الخ .

وجد أردوغان في(الجامعة العثمانية الإسلامية) البديل العملي عن القومية العلمانية، وسيلة لتحقيق عدة أهداف منها التوسع ودمج عدة مجتمعات قومية مختلفة غير تركية، والتخلص من رهاب القضية الكردية، وأخيراً تكوين حياة سياسية مشتركة تكرّس تفوق العنصر التركي وترسخ هيمنته في نهاية المطاف. ولهذا الغرض طرح مفهومه الجديد عن الهوية العثمانية الجامعة، التي تجسد مشروع الأمة الإسلامية، القادرة على تجاوز الخلاف الثقافية والقومية والعرقية. لكن هذه الهوية التي دعا إليها أردوغان هي في المحصلة ليست سوى شكل جديد من أشكال القومية غير العلمانية. إنها تعلن عن نفسها بوصفها تعبير عن أمة إسلامية، كوزموبوليتية، غير أنها تجد تجسيدها السياسي والثقافي في إطار الدولة التركية الأوسع والأشمل. الأردوغانية لم تعد تنظر إلى الدولة التي دشنها أتاتورك، بصفتها ممثلة للقومية العلمانية التركية، إنما بصفتها كياناً قابلاً للتطبيق عالمياً في نطاق الجغرافية الإسلامية وتحت وصاية تركيا. ولهذا الغرض لا يكترث حزب العدالة والتنمية الذي يقوده أردوغان بوجود اختلافات قومية أو ثقافية بين المجتمعات والدولة الإسلامية ولا يقرّ بها في خطابه السياسي والفكري، لأنها ستتوحد مرة أخرى تحت الهوية العثمانية الجديدة.

من هذا الموقع يمكن لتركيا أن تستعيد(النفوذ العظيم) للإمبراطورية العثمانية وتغدو قوة عظمى على المسرح الدولي، على نحو تتجاوز فيه العجز الجيوسياسي والانعزالية التي فرضتها الحقبة الأتاتوركية، حينما فرضت عليها الانكفاء في الحدود الراهنة. إن تركيا التي يريدها أردوغان اليوم وينشد تحقيقها، هي تركيا قوية محافظة وإسلامية تتجه نحو العالم الإسلامي، في تناقض واضح مع رؤية أتاتورك، إلا أنه يتفق مع الأخير في الطموح بأنها ينبغي أن تكون قومية وعظيمة ومهيمنة تكرّس تفوق العنصر التركي.

بعد محاولة الانقلاب الفاشلة عام ٢٠١٦م راح أردوغان يكشف عن وجهه القومي الإسلامي بشكل سافر. وشيئاً فشيئاً أخذ يتنكر لشعاراته الديمقراطية والمدنية التي جاء تحت لوائها، وينفصل عن التيارات الليبرالية والديمقراطية في تركيا، وحتى عن رفاق دربه الإسلاميين المستنيرين. وفي الوقت نفسه بدأ يتقرب، بل ويتماه مع التنظيمات الطورانية والقومية المتعصبة والمتشددة، التي أخذ

يشاركها القناعة بضرورة إحياء تركيا الإمبراطورية القومية والقوية، التي تعزز تفوق وهيمنة العنصر التركي، حتى لو كان ذلك على حساب شعارات الإسلام الكوزموبوليتي، المنفتح على التعددية والقائم على المساواة بين المؤمنين. إن واقعة تحويل متحف(آيا صوفيا) إلى مسجد مؤشر خطير على هذا النزوع الشعبوي المتنامي لديه نحو القومية الدينية المتطرفة وعلى التعاطي الانتهازي مع الدين لتعزيز قاعدته الشعبية وللإيحاء بقوته وتميّزه في مواجهة أعداء العثمانية.

هكذا ظهر إسلام أردوغان في هذه المرحلة أشدّ إغراقاً في النزعة القومية، وارتدى مظهراً سياسياً وثقافياً أكثر تركيّة، واتخذ تعاطيه مع التاريخ الإسلامي للعثمانيين ورموزه أبعاداً قوموية صارخة. يريد أردوغان، على هذا النحو، أن يختطف التاريخ العثماني لنفسه، ليواجه بها الأيديولوجية العلمانية، التي كرسها كمال أتاتورك، وليبرهن على فشلها في خلق أمة تركية عظيمة. وهذا الموقف انعكاس لقناعة أردوغان العميقة بفشل مشروع القومية العلمانية، التي أسيسها كمال أتاتورك وإن لم يختلف معه في أهمية منح العنصر التركي مكانة مهيمنة ومركزية. أردوغان هنا هو بالفعل أتاتوركي في إهاب إسلامي، هو(أتاتورك) مناهض لأتاتورك العلماني، معاد لأساليب أتاتورك ونهجه في التأسيس للمشروع القومي. بيد أن أردوغان يلتقي مع أتاتورك في أن كليهما استلهما في التأسيس لمشروعهما القومي أطروحات المنظّر القومي التركي يوسف أكشورا Yusuf Akçura (١٨٧٦/ ١٩٣٥) التي تقوم على مبادئ ثلاث: إنشاء دولة عثمانية إمبراطورية عبر استيعاب ودمج مختلف الشعوب والبلاد، التي كانت داخلة تحت حكم العثمانيين سابقاً. ثانياً، توحيد جميع الشعوب المسلمة سياسياً تحت سلطة خلافة جديدة. ثالثاً، سياسة الملّة التركية والتأكيد على القيادة القومية للعنصر التركي وسيادته على بقية الشعوب)(الجميل، ٢٠١٥، ص ٩٤)

أردوغان بهذا المعنى هو أتاتوركي للعظم. غير أن محاولته تجاوز التصور الأتاتوركي للقومية وتخطيها لا تعدو أن تكون سوى قفزة ماضوية رجعية في التاريخ. فهو عوضاً عن البحث لحل مأزق الهوية التركية في المستقبل، يرتدّ بروح رومانسية رجعية ليجد الحل في الماضي. من جانب آخر، ربما نجد تأثيراً قوياً آخر بهذا الاتجاه في تفكير أردوغان، وهو تأثير الشاعر والمفكر التركي فاضل كيساكورك Fazil KisakureK الذي ألهمت أفكاره السياسية والعقائدية توجهات أردوغان. إذ كان الأخير خصماً لدوداً لعلمانية أتاتورك(واختار الإسلام السياسي ردّاً على نهج أتاتورك، وروّج بقية حياته للثورة الإسلامية، التي اعتقد بأنها قادرة على التخلص من الكمالية وهيمنتها في تركيا. كما دعا كيساكورك إلى نظام رئاسي قوي، مما يسمح للزعيم تشكيل البلاد على صورته الخاصة، وهذا ما أثر بعمق في تفكير أردوغان وطموحه في السلطة. وهو ما فعله بالضبط في حياته السياسية وفي ممارسته للسلطة، وبذلك أسس سلطة مضادة لأتاتورك وإرثه. كذلك عمد أردوغان

استناداً إلى آراء كيساكورك إلى أساليب الهندسة الاجتماعية من الأعلى إلى الأسفل، مع سياسة تعليمية وتربوية خاصة.. الخ(See: Cagaptay,2020, P. 34)

أردوغان لا يدعم تحول القومي التركي إلى ديني إسلامي إلا في حدود أن يخدم هذا التدين الطموح القومي والسياسي لديه. وبالمقابل يدعم القوميين من غير الأتراك للتحول إلى إسلاميين، وتالياً يمهد لطبع الإسلام بالطابع العثماني أو القومي التركي لديه. وجميع الحركات الدينية في العالم الإسلامي مدعوة لتشجيع هذا الاتجاه والترويج له تمهيداً لعودة الأمة والخلافة الإسلامية.

لقد تلاعبَ الساسة والنخب الحاكمة على مدار التاريخ، ومن جميع الأديان، بالدين والمشاعر الدينية لأجل أغراضهم السياسية ومقاصدهم في تعزيز سلطتهم ولإشباع نهمهم للهيمنة على عقول البشر، لكن اهتمامات الساسة الإسلاميين في تركيا تخطت هذا الحدّ إلى ربط الاهتمامات الدينية لدى الشارع بالاهتمامات القومية الدنيوية. بهدف خلق هوية جماعية ووعي أيديولوجي مشترك بالانتماء يقوم على تناغم الديني والعرقي. ويكرّس لدى أفراد الجماعة شعوراً مقدساً بالتفوق والتميّز على الآخرين. وهكذا يؤثر أردوغان تفسيراً قومياً براغماتياً معيناً للدين على حساب التفسيرات الأصولية للإسلام، حتى وإن تعارضت معها.

يرفض أردوغان الاعتراف بكل تنوع ديني أو عرقي أو قومي في تركيا اليوم، ناهيكم بالعالم الإسلامي، وبدلاً من ذلك يسعى إلى احتواء هذا التنوع عبر دمجه وخلق هوية متجانسة يفرضها على الواقع من الأعلى، تحت عنوان الأمة الجامعة، الإسلامية العثمانية. وهذه الأخيرة باعتقاده قادرة على خلق وحدة ذات شرعية أخلاقية ودينية. لكنه بالمقابل يمنح هوية الأغلبية المهيمنة– العرقية والدينية– الأفضلية، وما على الأقليات المختلفة والمتنوعة إلا الطاعة والخضوع لها، بصفتها هوية عالمية ومقدسة.

الخاتمة:

الديني والقومي متشابكان بعمق في خطاب أردوغان السياسي، إلى درجة لا يمكن تصور فكاك بينهما، ولايمكن بأي حال افتراض وجود أحدهما دون الآخر. إلا أنه على الصعيد السياسي العملي، وعلى صعيد اهتماماته المباشر يطيح بكل مقدس ديني ومحرم وينقلب عليه إذا تعارض مع مطالب السلطة لديه.

ويظل النقاش حول تعريف مفهوم الأمة لدى أردوغان وجدل القومي والديني فيه بمثابة المحور لكل القضايا السياسية والمدخل إلى فهم خطابه السياسي وخطاب الإسلاميين الأتراك. إذ على الرغم من وعي أردوغان بمدى التنوع والتعقيد الذي ينطوي عليه هذا المفهوم إلا أنه ظلّ يؤثر المفهوم الإسلامي في صيغته العثمانية لاستجابة الأخيرة لطموحاته السياسية دخل وخارج تركيا. إذ لا يعدو

هذا المفهوم أن يكون سوى ردة فعل على المجد الإمبراطوري المفقود في مواجهة أوروبا والقوى العالمية وتعويضاً عنه. إنه السبيل الأمثل في هذه الظروف، التي تعصف فيها الانتفاضات والخيبات في محيط تركيا، لاستعاد نفوذ تركيا وتحويلها إلى قوة عظمى. إن التلاعب بأحلام الناس ومشاعرهم هي اللعبة المفضلة عند أردوغان(وهو يعلم أن الدعوة إلى كسر سلاسل العبودية الوهمية، التي تمنع الناس من الوصول إلى العظمة سيكون لها صدى لدى مؤيديه من القوميين الإسلاميين الحالمين، وبصرف النظر عن سخافة تلك الدعوة... إن الغرب المسيحي والقوى العالمية تمنعنا من أن نصبح عظماء ونستعيد مجدنا. هكذا يمنحهم أردوغان أساساً صلباً للكراهية مقابل أن يمنحوه تأييدهم وصوتهم ليتحدث بإسمهم)[٢٠] هذا هو السحر القومي والديني، الذي يمكن لأي مستبد أو مشعوذ مهوس بالتسلط ممارسته والسيطرة من خلاله على عقول الناس وجعلهم منقادين لسلطته وأجندته. إنها جوهر وحقيقة الرغبة المشبوهة في خداع الحشد والجمهور والتحكم بهما.

ويلاحظ أن السردية التي باتت شائعة لدى جمهور الإسلاميين، الأتراك وغيرهم، وروّج لها أنصار أردوغان تنطوي على زخم تآمري هائل في وعيهم، وهي(أن أردوغان يريد أن يجعل الترك المسلمين عظماء مرة أخرى، لكن الغرب، الذي يزدري الإسلام والمسلمين لا يريد ذلك، ولهذا يريد تقويض هذا المشروع المقدس من خلال المؤامرات الغادرة والوكلاء المحليين. ولهذا فإن معارضة أردوغان تعدّ خطيئة، انتهاكاً للمقدس وفق هذه الرواية)(Temelkuran,2019, P. 28) وقد استغل أردوغان نظرية المؤامرة هذه في تشديد قبضته وتحكمه بالسلطة ومواجهة منافسيه ومعارضي نظام حكمه، إذ طالما صار كل فشل اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي للسلطة هي بسبب مؤامرة خارجية، غدا كل انتقاد أو معارضة سياسية في تركيا، من وجهة نظر السلطة، خطيئة أخلاقية ومعصية دينية.

ختام القول، إن مشروع الأمة الإسلامية في مفهومها(العثماني الجديد) هو حصان طروادة أيديولوجي، يبرر ويؤسس لنمط جديد من الهيمنة القومية والنفوذ الاستراتيجي وينطلق من الأهداف السياسية والمصالح الأمنية التركية حصراً. ويضع في الاعتبار ضرورة سيادة العنصر التركي على بقية شعوب المنطقة، التي بدورها عليها أن تنصاع لتلك الأهداف والمصالح طواعية وتنقاد نحو تحقيقيها، لأن من شأنها أن تجعل تلك الشعوب قوية وشريكة في صناعة هذا المجد التاريخي، مقابل أن تتخلى عن هوياتها واهتماماتها القومية وتتجاوز خصوصياتها. هذا ما يؤمن به الرئيس

التركي بعمق وهذا هو الثقب الأسود للعمق الاستراتيجي الذي نظّر له أحمد داؤود أوغلو، وأحاطه بهالة من الجاذبية من الشعارات الخادعة حول الحضارة المشتركة والمصالح ....الخ

ثبت المصادر والمراجع:

- الجميل، سيار.(٢٠١٥)، العثمنة الجديدة: القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك، المركز العربي للأبحاث والدراسات، الدوحة- بيروت.

- إلياس، فراس محمد.(٢٠١٦)، تحليل السياسة الخارجية التركية وفق منظور المدرسة العثمانية الجديدة، دار أكاديميون للنشر والتوزيع، عمان.

- أوغلو، أحمد داؤود.(٢٠١١)، العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد جابر ثلجي و طارق عبدالجليل، مراجعة بشير نافع وبرهان كوروغلو، الدار العربية للعلوم- مركز الجزيرة للدراسات، بيروت- الدوحة.

- بيرييه، غيوم.(٢٠١٨)، رجب طيب أردوغان: طموح وسلطة، تعريب أنطون الهاشم، عويدات للنشر والطباعة، بيروت.

- سوريون من أجل تحقيق العدالة، تجنيد تركيا لمرتزقة سوريين للقتال في ليبيا، ١١ مايو/ أيار ٢٠٢٠ انظر: www.stj-sy.org

- مجموعة باحثين.(٢٠١١)، عودة العثمانيين: الإسلامية التركية، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي.

- نوفل، ميشيل.(٢٠١٠)، عودة تركيا إلى الشرق: الاتجاهات الجديدة للسياسة التركية، الدار العربية للعلوم، بيروت.

هنتنجتون، صامويل.(١٩٩٩)، صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشاب، بيروت.

- Cagaptay, Soner.(2020), ***Erdogan's Empire: Turkey and The Politics of The Middle East***, Published by I.B.TAURIS, London, New York, Oxford.

- Fuller, Graham. (2008), ***The New Turkish Republic: Turkey as a Pivotal State in the Muslim World***, United States Institute of Peace Press, Washington, D.C. .

- Hibbard, Scott. (2010), ***Religious Politics and Secular States: Egypt, India, and the United States***. The John Hopkins University Press, Baltimore.

- Temelkuran, Ece.(2019), ***How to Lose a Country: The Seven Steps from Democracy to Dictatorship***, 4th Estate, London.